



تعدّ سورية من أقدم البلدان المأهولة بالسكان في العالم؛ ولا جدال إن دمشق هي أقدم عاصمة في التاريخ. ويعيش على أرض سورية تجانس ديني، وعرقي، وطائفي، قلما نجده في الكثير من الدول، إذ يشكل المسلمون السنة 70 في المائة من سكانها، وتشمل هذه النسبة الأكراد، والتركمان، والشراكسة، والأرناؤوط، ويشكل المسيحيون من طائفتي الروم الأرثوذكس والأرمن 14 في المائة، ويشكل العلويون 10 في المائة؛ والدروز 3 في المائة؛ والإسماعيليون 2 في المائة. يقول المؤرخون: "إن أهل سورية كانوا قبل الإسلام خليطاً من الأديان والأعراق. وبعد الفتح الإسلامي أصبحت ولاية من ولايات الدولة الإسلامية، وبعد ذلك أصبحت دمشق مركز الدولة الإسلامية، وعاصمة الدولة الأموية. وكان الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- عين يزيد بن أبي سفيان والياً على الشام في عام 650م، ولم يلبث أن خلفه أخوه معاوية بن أبي سفيان والياً على جزء من بلاد الشام. وفي عام 656م عينه الخليفة عثمان بن عفان -رضي الله عنه- والياً على كامل بلاد الشام، وظل والياً عليها حتى أصبح الخليفة عام 661. فكان أول خلفاء بني أمية، واتخذ دمشق عاصمة له. وأسس حكماً وراثياً استمر من عام 661 حتى 750".

سمي معاوية داهية العرب؛ لأنه استطاع أن يستميل أهل الشام، فعاضده في إدارة الخلافة. وكان عليه أن يسيطر على أحزاب المعارضة. وطور جهازاً إدارياً منظماً جعل مقره حول المسجد، الذي كان معبداً رومانياً يسمى معبد جوبيتر؛ حيث كان المسيحيون يقيمون صلاتهم في هيكله، بينما كان هو يصلي في زاوية فنائه قرب قصر الخضراء حيث كان يقيم. وقد كان معاوية حكيماً، تشهد على ذلك مقولته المشهورة: "لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت؛ إذا شدوها أرختها، وإذا أرخوها شددتها".

كان الأمويون يحترمون التعدد الديني والعرقي والمذهبي والطائفي، إذ كانت الدواوين والسجلات في عصر عبد الملك بن مروان تدون باللغات العربية، واليونانية، والفارسية، والقبطية، والسريانية، بحسب المناطق التي انتشر فيها الإسلام في ذلك العصر. وكان سرجون بن منصور يدونها بالرومية.

وعلى رغم انتشار الإسلام في أرجاء سورية ترك الأمويون الناس كلاً على دينه ومذهبه. إذ كان النصارى يدخلون من باب واحد مع المسلمين لأداء شعائرتهم الدينية في الشطر المحاذي للمسجد الأموي، الذي كان منذ عهد الوثنية معبداً للشمس كما أسلفت؛ ثم تحول إلى كنيسة. ولما جاء الإسلام بفتح دمشق، شطراً بالسلم، وشطراً بالقتال والحرب، اختصّ المسلمون بشطر، وبقي أهل النصرانية في الشطر الآخر. وارتأى المسلمون أن يتم التخاصص بينهم وبين أهل النصرانية، باستقلال المسلمين في مكان المسجد الأموي، بمقابل استقلال أهل النصرانية بالكنائس الأخرى.

خاضت بلاد الشام بعض الحروب الأهلية، أهمها تلك التي جرت بين عامي 1237 و1244؛ ولكن تلك الحروب لم تكن على أساس طائفي. كما ذكر المؤرخون أن أهل الشام كانوا يكرهون الحروب الطائفية التي كانت في بعض الأحيان تُفرض عليهم. ففي التاسع من تموز عام 1860م اجتاحت جماعة من الرعاة المنطقة المسيحية من مدينة دمشق الداخلية، سقط فيها المئات. فلجأ الآلاف من المسيحيين إلى بعض دور الأعيان من المسلمين، حيث احتموا بهم من غدر هؤلاء الرعاة، منها بيت آل العظم في حي القنوات. وقد اضطر الأمير عبد القادر الجزائري -آنذاك- لتسليح ألف رجل لحماية المسيحيين. ثم

دعا فؤاد باشا أعيان مدينة دمشق لاجتماعات شأفة أولئك المحرضين على تلك الحوادث، وأمر بإعدام نحو 170 شخصاً من الذين أدينوا بأعمال القتل والتحريض والنهب.

في أواخر العهد العثماني كان هناك الكثير من الأحزاب السياسية التي تضم جميع أديان وطوائف السوريين، مثل: حزب الاتحاد والترقي، وجمعية الإخاء العربي، والجمعية القحطانية، وجمعية العهد، وحزب الإصلاح.

قامت الثورة السورية ضد الاستعماري الفرنسي بمشاركة قواد يمثلون جميع الطوائف في سورية، منها: ثورة اللاذقية بقيادة صالح العلي، وثورة الشمال بقيادة إبراهيم هنانو، وثورة رمضان شلاش في الفرات، والثورة السورية الكبرى بقيادة سلطان باشا الأطرش، وثورة غوطة دمشق التي اشترك فيها جميع الأديان والطوائف الدمشقية؛ مما اضطر الفرنسيين لإعلان الاتحاد السوري بين دويلاته عام 1922م. ودفع سلطة الانتداب إلى إعلان الدستور عام 1930م، وانتخاب محمد علي العابد أول رئيس للجمهورية السورية عام 1932م، وبعد معاهدة 1936م انتخب هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية، وظهر أول مجلس نيابي.

وبعد أن لجأت سورية إلى مجلس الأمن، صدر القرار بالجلء الفوري الذي تم في 17/ نيسان/ 1946م في عهد الرئيس شكري القوتلي.

في أعقاب انقلاب 8/ مارس/ 1963م قام بعض الضباط بتشكيل عصبة طائفية سميت اللجنة الحزبية العسكرية، بقيادة صلاح جديد، ومحمد عمران، وحافظ الأسد. ثم في 23/ شباط/ 1966م نفذ تحالف من الضباط الطائفيين انقلاباً على أمين الحافظ، آخر رئيس سني في سورية. ونُفي ميشيل عفلق، ومعه ابن حي الميدان الدمشقي السني صلاح البيطار؛ لإلغاء دور الأحزاب في الحكم في المستقبل نهائياً. وفي عام 1971م أصبح حافظ الأسد رئيساً لسورية، بعد إزاحة صديقيه وابني طائفته؛ صلاح الجديد، ومحمد عمران.

نيقولاس فان دام سفير هولندا في مصر أَلَفَ كتاباً بعنوان: "الصراع على السلطة في سورية"، أوضح فيه كيف بدأت الطائفية السياسية في عهد حافظ الأسد، وما هي العوامل التي ساهمت في الولاءات الطائفية. فيما عزا الكاتب البريطاني "باتريك سيل" التطرف في الولاء للطائفة العلوية في كتابه "الصراع على الشرق الأوسط" إلى الحالة الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تعاني منها هذه الطائفة.

المصادر: